عينة للقراءة غير مخصصة للبيع

جميع الحقوق محفوظة. إن أي استخدام للنص وللصور حتى على هيئة مقتطفات مخالف لحقوق الملكية الفكرية ويخضع للمساءلة القانونية، ما لم يصدر بذلك عن دار النشر موافقة كتابية. وهو ما يسري بصفة خاصة على إعادة النسخ والترجمة أو الاستخدام في الأنظمة الإلكترونية.

إنجو شولتسه

القتلة الصالحون

رواية

ترجمة: لبنى فؤاد

دار نشر إس. فيشر

الفصل الأول

في حي "بلازفيتس" بمدينة درسدن كان يعيش تاجر كتب قديمة يتمتع بسمعة لا نظير لها بسبب كتبه ومعارفه، وبسبب قلة ميله للتأثر بتوقعات عصره. لم يقصده سكان محليون فحسب. وليس في مدينة لايبتسيج أو برلين أو مدينة بينا وحدها، كان هناك مَن حرص بشدة على الاحتفاظ بعنوانه، بل قصده من يتسمون بالنهم للقراءة حتى من جزر بحر البلطيق مثل روجن وأوزيدوم، فتكلفوا رحلات قطار أو سيارة تستغرق ساعات، وناموا فوق مراتب هوائية عند أصدقاء أو سكنوا أماكن مبيت رخيصة، فقط من أجل البدء في اليوم التالي، الساعة العاشرة تمامًا، في رحلة الاستكشاف، والتي امتدت -مع استقطاع ساعتين لراحة الظهيرة- إلى السادسة مساءً، بل وأحيانًا إلى الليل أيضًا، تسلقوا مرتفعات أعلى صفوف أرفف الكتب فوق سلالم متحركة، قرأوا فصولا كاملة معتلين الدرج النقّال، قبل أن يهبطوا منه إلى أدنى موضع، كي يتفقدوا أظهر الكتب، وهم جاثون على ركبهم، كأنهم يفحصون أرضية اللينوليم، ظن الباحثون وجود تلك الكتب التي يمكن أن تمثل لهم محور العالم في المناطق المتطرفة على وجه الخصوص.

ربما احتوت متاجر بيع كتب قديمة أخرى على معروضات أكثر تضم مزيدا من النوادر داخل أروقة أكبر، لكن من أتى إلى شارع "بروكنر" في حي "بلازفيتس" في درسدن، ودفع بوابة الحديقة الحديدية، عبر أسياج الشجر وصناديق المخلفات حتى وصل إلى باب البيت، وضغط الزر الأبيض المتقلقل بجانب لافتة "متجر كتب قديمة"، صبر حتى انفتح الباب بنقرة واحدة، ثم

صعد عبر درجات الحجر الرملي إلى الدور الأول، قرع في النهاية الجرس المصنوع من الألومنيوم، المكتوب أعلاه "برجاء تحريك الجرس"، فإنه قد تطلع إلى ما هو أعظم، أي السماح بالولوج إلى مملكة تاجر الكتب القديمة الشهير "نوربرت باوليني".

بدا "نوربرت باوليني" أشبه بخادم كنيسة أو حارس متحف، وهو يقف حاميًا فتحة الباب بجسده، متفحصًا الزائر عبر نظارته، باعثًا إياه على الاضطراب أو حتى حاطًا من شأنه إلى درجة شخص غير مسموح له بالدخول، لكونه لا يعرف كلمة السر، وهو يردد: "أي خدمة؟"، ألا يتعرف سيد الكتب على الأشخاص ثانيًا؟ هل نسي الأحاديث المشتركة؟

ومَن أجابه، سُمح له بالدخول! سواء تلك التي لا ترغب سوى في "إلقاء نظرة على المكان"، أو مَن يريد معرفة إذا ما كانت ترجمة "توسيديديس" قد تكون وصلت هذه المرة.

"تحياتي" هكذا كان "نوربرت باوليني" يجيب بعدها، يذكر أسماء زائريه أو ينطق على الأقل بتردد "سيدة ..." أو "سيد..."، مما يحفز زواره على مساعدته في استكمال الاسم، بإيماءة رأس يكرر تاجر الكتب القديمة الاسم كأنه مفردة جديدة سقطت من ذاكرته للحظة دون سبب مفهوم.

بحسب الطقس وفصل السنة، كان يشير إلى شماعة الملابس وحامل المظلات، ثم يهرع بخطوات واسعة، كي يعود سريعًا، وهو يحمل بعض الكتب داخل طوق مطاطي فوقه ورقة تحمل اسم مَن أمامه.

"ربما به ما يثير اهتمامك"، هكذا كان يقول، وهو يدفع الطوق المطاطي إلى مفصل يده الأيسر، ويدس الورقة في الجيب الجانبي لمعطفه الرمادي المائل إلى الزرقة، يبدأ "نوربرت باوليني" على الفور في ذكر الأسباب التي أدت به إلى إدراج هذا أو ذاك الكتاب تحت العنوان المطلوب، بينما تربت راحتا يده وأصابعه على الكتب، تعانقها، أو تمر بحنو على جروحها، سواء كانت تمزقات في الغلاف الواقي، أو أظهر معوّجة، أو زوايا منبعجة، يرص كتابًا تلو الآخر أمامه، في حين تعمل أنامل يمينه دون كلل على تنسيقها على مسافة واحدة من حافة المنضدة. "ربما يلقى أحد هذه الكتب اهتمامكم"، هكذا كان يكرر قوله في النهاية، ثم يستأذن منصرفًا. ندر أن يضرب أحد بمقترحاته من الكتب عرض الحائط بعد أن يُترك بمفرده معها. وعدم وجود ما يكفي من مال لا يصلح كسبب، فكل واحد مسموح له بحمل كتبه إلى المنزل بعد أن تتحرك رافعة الخزينة، ويتم إثبات القيمة المتبقية على ورقة، إلا أن"نوربرت باوليني" في حالات ليست بنادرة كان يمزق ورقة الدين تلك الصادرة لتوها أمام عينيّ ضيفه ويضع الكتاب المرغوب دون أن ينبس ببنت شفة ضمن الكتب المدفوع قيمتها بالفعل. وبدا أصمًا إزاء تلك الاحتجاجات غير الراضية عن مثل هذا السخاء، كان "نوربرت باوليني" يعلم ما ينفع هذا وهذه، ما أهمية بعض الماركات (النقود) أقل أو أكثر هنا؟

هل احتلت الكتب أجمل ثلاث غرف لدى "نوربرت باوليني" أم أنه هو من اختار البقاء بجوار الكتب، يبقى ذلك السؤال بلا إجابة. تعيش الكتب وتاجر الكتب القديمة معًا، بالنهار وبالليل، وبسبب أشجار القيقب أمام النوافذ المطلة على

الشارع، وشجرة الكستناء الكبيرة التي تظلل المنزل من جهة الفناء اختلطت أوقات اليوم وفصول السنة لتبدو نصف مظلمة، مما برر استخدام ضوء مصباح قراءة في كل وقت.

غير أنه كان بمقدور "نوربرت باوليني" أن يصبح صارمًا، قاسيًا، وذلك إذا أعاد زائروه كتابًا تصفحوه إلى المكان الخطأ أو تركوه موضوعًا بشكل أفقي فوق كتاب آخر، كان يصر في جميع الأحوال على المحافظة على نظامه، النظام وحده هو ما صان الكتب من احتمالية عدم العثور عليها، أي من الاختفاء، كان النظام أيضًا بمثابة شرط الحاسة السادسة لدى "نوربرت باوليني"، امتلك موهبة ملاحظة التغيرات التي تطرأ مع تعاقب أظهر الكتب بأطراف عينيه، فإذا اختل شكل أظهر الكتب عثر في التو واللحظة على الموضع الصحيح، كان بمقدوره ذكر الكاتب والعنوان حتى قبل وصول الكتاب فوق طاولة الخزينة، بل كان "نوربرت باوليني" ينتظر أحيانًا ليعرض مقترحات إضافية، طالب مرتين لصًا بإبراز الكتاب مع ذكر كامل بياناته الببليوجرافية، نسب البعض إليه قوى خارقة، أو فتشوا حولهم سرًا عن مرآيا خفية.

لا يُستبعد اعتبار "نوربرت باوليني" رجلًا متقدمًا في العمر، لكن من لا ينزعج من موديل نظاراته الذي يرجع إلى عصر ما قبل الطوفان، أو الجزء الأصلع من شعره الذي لا حيلة له فيه والذي يلمع أعلى مؤخرة رأسه محاطًا بشعر داكن مجعد، ومن لا يرجع منكبيه العريضين وذراعيه القويين إلى السترة الصوفية التي يلبسها تحت المعطف الأزرق المائل إلى اللون الرمادي، ومن لم تزعجه ثنيات مكواة أرجل السروال ولا حذاؤه الثقيل، الطبي على ما يبدو الذي يطوف

به الغرف كل يوم، ومن لا يضطرب كذلك من طريقة نطقه الملتزمة باللغة المكتوبة والمصطبغة باللهجة الساكسونية، بل مَن تطلع مثلي بوجه "نوربرت باوليني" في الماضي، لكان أبصر في هذه الثياب الخاصة رجلًا شابًا، لا يمكن تصور أنه كان مختلفا في يوم ما، أو أنه قد يتغير يومًا.

الفصل الثاني

افترش "نوربرت باوليني" منذ ولادته كتبًا. والدته هي "دوروتيا شوللر" التي تنحدر أصولها من مدينة "كرونشتات" بإقليم "زيبنبورجن"[1] والتي هربت مع أسرتها خلال فوضى الحرب، ثم ما لبثت أن استقرت بمفردها في مدينة "باد بيركا" بالقرب من مدينة فايمر، حيثما ثابرت على العيش في حجرة دون تدفئة على أمل إعادة إحياء فكرة المدرسة الفنية "باوهاوس". قابلت في عام 1949 زوجها المستقبلي "كلاوس باوليني" في متنزه على نهر الإلم. الإصرار الذي قابلها به، أخلاقه الحسنة، ضغطة يده القوية باعتدال، كذلك اسمه دفعوها للرحيل إلى مدينة درسدن لأجله، ثم للزواج منه. كان كلاوس قد أنهى دراسة تأهيلية كعامل خراطة، وبدأ العمل في مصنع بمنطقة درسدن-رايك. حصلت "دوروتيا باوليني" عام 1951على تصريح بفتح متجر لبيع الكتب، ملحق به قسم خاص لبيع الكتب القديمة، ورفضت عرض صهرها الذي غيّر مهنته من صانع أقفال إلى سائق مقطورة بمساندتها ماليًا مما أثاره ضدها، إلا أن باوليني العجوز اختفى بعدها بقليل من مدينة درسدن دون إعلام الأسرة عن وجهته، كان رجلًا خاضعًا لأهوائه.

منذ اليوم الأول تألق متجر "دوروتيا باوليني" لبيع الكتب، الكائن في شارع "هوبلر"، قاب قوسين من ميدان "شيللر" وذلك الجسر على نهر الإلبا المسمى "المعجزة الزرقاء". وكان زوجها ابتاع لها مقطورة دراجة بعجلتين مكنتها حاليا من نقل غنائمها من الكتب. لم يكن هناك أي طريق طويل بالنسبة لـ "دوروتيا

[1] تقع في رومانيا، سكانها من أصل ألماني استوطنوا المنطقة منذ القرن الثاني عشر الميلادي. (المترجمة)

باوليني"، إذا هاتفها مَن يعرض عليها الكتب الملائمة. وكان "كلاوس باوليني"، الذي لم يكن قارئًا جيدًا مما أحزن زوجته، يتولى في المساء أحيانا أو في بعض أيام الأحد القيام بالجولات نيابة عن زوجته، وأسهم من راتبه ببعض المال كلما لزم الأمر.

كان "كلاوس ودوروتيا باوليني" واثقين أنه ينبغي ألا تكون هناك حرب جديدة، أسهما في ذلك بالاستثمار في الكتب، ووضعا كل فلس استطاعا ادخاره في مشتروات، وحتى عندما غدت "دوروتيا" حامل، لم يتغير شيء بهذا الأمر.

في يونيو من عام 1953 أنجبت "دوروتيا باوليني" صبيًا – وفارقت الحياة عقب ذلك بأيام معدودة بسبب التهاب بكتيري غير معروف، وتولت "أجنس باوليني" التي تدعى منذ الميلاد "آبل" رعاية حفيدها كما وعدت زوجة ابنها، لكن لا أحد يعرف لماذا لم يبحث "كلاوس باوليني" عمَّن يخلف زوجته في متجر بيع الكتب، وأبدى بدلا من ذلك استعداده لدفع باقي أقساط زوجته، والاحتفاظ بالكتب التي قامت بشرائها، والتي كان الجزء الأكبر منها لا يزال مخزنًا داخل صناديق وكراتين.

هل لم يكن بمقدوره احتمال رؤية غريب خلف خزينة "دوروتيا"؟ أم لم يمكنه التخلي عن الحلم بمواصلة حياته كمساعد في مكان هاديء ونظيف بدلا من أن يهب نفسه لماكينة صاخبة تخترق جسده يومًا بعد يوم من أطراف أصابع قدميه حتى منبت شعره، وتنفخ في وجهه أنفاس عوادم تحمل هواءً مشبعًا بزيت متسخ؟ أم أنه أراد في الواقع، كما اعتقد كثير من الناس بعد ذلك، المحافظة على كتب زوجته الحبيبة من أجل طفلهما؟ قام "كلاوس باوليني" بمساعدة بعض زملاء

العمل بشحن الكتب الكثيرة وأرفف الكتب القليلة إلى شارع "بروكنر"، حيثما كانت "أجنس باوليني" تقطن في غرفتين بالطابق الأول في منزل أسمته المؤجرة "فيلا المدينة"، قاما برص الكتب، التي لم يتسع لها لا البدروم ولا الحجرتان، داخل الرواق الكبير في مجموعات على شكل مربعات. وكان نجار قد كُلف بصنع ألواح خشبية بهدف تحويل أكوام الكتب إلى مقاعد، إلا أنه تعين نزع هذه "المحاريب" مرة أخرى فورًا؛ نظرًا لأوضاع البيت التي لا يمكن تغييرها، ولاعتراض أسرة لاجئين من سيليزيا كانت تسكن في ثلاث غرف في الطابق نفسه. باع "كلاوس باوليني" قوائم الفراش مما أحزن والدته، ومنذ ذلك الحين استقرت المراتب فوق الكتب، استقرت كذلك السلة التي تضم الوليد فوق أرضية من نفس المادة. وما لم تستطع أرفف الكتب استيعابه، أخذ يتنامى على الجدران بكثافة في شكل أكوام. بدا الأمر وكأن ساكني المنزل قد تسوقوا بكميات كبيرة بغرض التخزين للطوارئ، إلا أنهم بدلا من العلب المحفوظة أو أكياس السكر أو الدقيق، كانوا يكنزون كتبًا. تربعت الخزينة عرش منضدة ماكينة الحياكة مثل قديس تشع منه هالة.

الفصل الثالث

أبدى "كلاوس باوليني" استعداده للعمل في أحد المصانع بنظام الوردية مما أنهكه. لم يحظ على مدار اليوم بنومٍ كافٍ في بيته، واعتبر ابنه مسؤولًا عن ذلك لأنه - كما اعتقد - لا يستطيع عمل شيء دون أن يصدر صوتًا عاليًا، إلا أن "أجنس باوليني" رفضت إرسال حفيدها إلى روضة الأطفال كما طالب ابنها، وبدأت بدلا من ذلك في الخروج من المنزل في نزهات طويلة بصحبة عربة الأطفال. وعندما تعلم "نوربرت" المشي، صار يتريض معها في أرجاء "بلازفيتس" و"لوشفيتس" أو بمحاذاة نهر الإلبا. كانت نزهاتهم تصل أحيانًا إلى وسط المدينة، حيث ترعى قطعان الخراف في المراعي الشاسعة بين السوق القديم ومحطة القطار الرئيسة. لم يمل "نوربرت باوليني" أبدًا من رؤية جدته وهي تثني فراء الحيوانات المتسخ اللزج مثل خصلات العشب، كي يمكنه أن يرى ويشعر كيف أن باطنه نظيف، فاتح اللون وناعم الملمس، علّمته أن يُصلي قبل الخلود إلى النوم، وأرادت تعميده، إلا أن أباه منعها، وكانت تنقصها الشجاعة لتفعل ذلك سرًا.

عندما اصطدمت "أجنس باوليني" ذات مرة دون قصد بقاعدة المرتبة وهي ترتب الفراش، تناثرت عند قدميها كتب من جميع الأصناف، أرادت إعادة رصها على وضعها الأول، إلا أن كتابًا تبقى في يدها لم تجد له مكانًا، وكأن لُبنات الكتب قد تكاثرت بفعل معجزة. وبسبب اضطراب اعتراها أكثر من قصد تعمدته، فتحت الكتاب، ونظرت فيه وبدأت أيضا في القراءة، ربما لم تتمكن "أجنس باوليني" من نطق الأسماء إلا أنها سرعان ما فهمت أنه يدور حول

الحب الذي جمع مدرس منزلي سابق، يفترض أنه صار رجل دين حاليا، ووالدة أطفال كان يدرس لهم سابقًا، قصة من الماضي الأسود. عندما عاد ابنها إلى البيت وجد أمه تقرأ بصوت عال. بالطبع لم يفهم الصبي شيئًا من ذلك، هكذا ردت على تساؤله، لكن كان لصوتها تأثير مطمئن على نفس "نوربرت" الصغير، عندما أنهت "أجنس باوليني" الكتاب بعد ثلاثة أيام – مع تجاهل بعض الصفحات التي لا تحتوي على أحداث مهمة – لاحظت أنها بدأت بالجزء الثاني من القصة، أزاحت المرتبة، وقلبت جميع الكتب رأسًا على عقب حتى أصبح الجزء الأول بين يديها.

منذ ذلك الوقت وهي تقرأ على مهل وبصوت عال، مما دفع حفيدها بعد ذلك بوقت قليل لمصاحبة موسيقى عباراتها بطنين، أو لإعادة نطق ألفاظ وراءها لفظًا لفظًا وتكراره. يفعل ذلك أحيانًا لوقت طويل، حتى تكف "أجنس باوليني" عن مواصلة القراءة، ويهرب منها معنى مقاطع الألفاظ بالنسبة للأصوات التي تسمعها. كثيرًا ما أشار "نوربرت باوليني" أثناء التريض إلى منزل، ولوحة إرشادات مرورية، وإلى شجيرة، قائلًا: دقة جرس، غابة فورنفالد، مذراة. كانت "أجنس باوليني" تصحح له، إلا أنه كان عليها مراعاة ألا تتأخرعن الوصول. في اليوم التالي أشار لها مجددًا إلى لوحة بأسبقية المرور، وهو يردد: "فورنفالد".